# حول النقد الأدبي المعاصر

بقلم محيي الدين فارس

عندما يقف فنان ما ، ازاء لوحة معينة ، تستغرقه ويستغرقها لحظة من الزمان ، ثم يعطى حكما بعدذلك ، فهو انما يعطي اول ما يعطي ابعاده الثقافية ، ومعنى ذلك ان احكامنا نسبية . فهي دائما تشوف الى حقيقة ، والحقيقة ليست جمودا ، فهي حركة ، ومن ثم فلا بد ان تأخذ الطابع اللامتوقف ، فليست الاحكام التي نطلقها ومن خلال ذوقنا الخاص الا خلاصة مضغوطة لطعوم ثقافاتنا المختلفة . ولهذا فان كبار النقاد يلقون آراءهم دائما في تحفظ وحذر ، بل ربما اعطوا الحيثيات التي تكون الحكم دون اعطائه بطريق مباشر . فآراء الناقد لا يمكن ان تكون نهائية : فالناقد الجيد هو الذي يعطي احكاما ممتدة ، وهذه الاحكام التي تلقى باعتبارها محصولا فنيا تخضع ايضا للغربلة والتمحيص . واذن فهناك فنانان بازاء بعض : الفنان الخالق ، والفنان الناقد . واذا كان الفنان المبدع يدفع باثره المخلوق الى منطقة عازلة ، بحيث يقف منه بعد الخلق موقف الاخر المتذوق .. فهو انما يضع نفسه مكان الناقد نفسه ... فالفنان الخالق فنان ناقد . والدليل الملموس على ما نقول ، تلك الحركة الدينامية النامية التي ترافق بعض الفنانين في رحلاتهم التطورية نتيجة النقد الذاتي .. فالثقافة ما دامت امتدادا متحركا ، فهي دائما عطاء ، وبالتالي فهي عملية حشد الحياة في خطوطها الرئيسية . والناقد عندما يتناول الاثر الفني انما يخلق هذا الاثر من جديد . وهذه مهمة شاقة لان الاراء والقواعد التي تكون في مجموعها ما يشبه النظرية للنقد الفني لم تكن موجودة قبل ميلاد المادة الادبية، وانما استنبطت استنباطا بعد ذلك بطريقة التصفية والتجريد من آثار الخالدين ! !

فالشروط المطلوبة في الاعمال الروائية الناجحة مثلا ، او وقوف النقاد التشكيليين ازاء الخط فقط ، كقيمة تعبيرية ، او عند الظل ، كعامل اساسي في ابراز الابعاد الخلفية للمشهد المنظور ، او عند العائلة اللونية التي تعطى التناسب والانسجام ، او وقوف ناقد مسرحي عند اللون الكرنبي لانه يساعد على تجسيد الاجواء النفسية ـ كل هذه الاراء وغيرها قد اخذت اخذا من سياق هذه الاعمال !

واذا اسمينا النقد علما وهو كذلك ـ فانما هو العلم الذي لا يعتمد على قواعد ثابتة ... لانه غير متوقف ، فربما محا اراء برمتها ، واقام على انقاضها اراء اخرى . واذا كانت هناك من قواعد ، فهي القواعد التي تصحب رحلاته الاستكشافية . هي لا توجد قبل هذه الرحلة ، وانما تبدأ في الوجود معها ، ولهذا يفشل النقاد المدرسيون غالبا ـ لانهم يضعون في اذهانهم بضع مقولات معلبة تطبق تطبيقا قسريا حسب نوعية كل فن . فللقصة بضع آراء ثابتة ، وللقصيدة الجديدة كذلك ، وللعمل المسرحي قضبان حديدية ينبغي ان نسير عليها والا ... وما على مثل هذا النوع من الثقافة الا ان تضع كل لون من الفنون في قالبه المحفوظ، وهنا تكمن الخطورة لان للناقد طبيعة استمرارية شغالة تلتقط مواطن القبح والجمال معا .. وهذا يحتاج دائما الى عنصري الحرية .. والتلقائية .

وبالرغم من ان هذا قياس مطرد ، الا اننا نستطيع ان نقول ان عملية الخلق من جديد مشرط ذو حدين : فهو اما ان يمزق الاقنعة عن صورة النموذج الكامل وهو في لحظات التوهج الابداعي مشيرا « ببوصلته » نحو الخطوط الضعيفة والقوية على السواء، واما ان يعمد من اول الامر الى الرفض الكامل ، بعثرة اللبنات التي كونت الاثر الفني ليقميها من جديد مخلوقا سويا ، ولا فارق في ذلك بينه وبين عمل الفنان الرسام .. لانه مطلوب منه في هذه الحالة ان يعطينا صورة النموذج المثالي تماما كما يعطي الراسم في مرسمه من خلال عملية ذهنية انفعالية وهم الصورة غير المنظورة . وقوة التصور عند الفنان والناقد والرسام تكاد تكون في درجة واحدة وان اختلفت الاساليب اللاقطة للمرئيات ، فالرسام يعطينا الصورة في لغة هي الخط والظل واللون ، والفنان يعطينا الصورة في لغة هي الكلمات المشحونة ذات الالوان المتعددة حسب الانفعال النفسي . والناقد لا بد ان يكون كذلك . فلا فرق بين الصورة المنظورة والصورة المنطوقة . وما دمنا نؤمن بتلك « المقولة » ـ البناء بالصور كما يقول كتاب علاقة الفن بالواقع .. وكتب كثيرة غيره ـ فلا بد من ان يعرف الناقد جيدا لغة الالوان التي تكسب كلماتنا طابعا معينا يجب ان يعرف تجانس الاصوات وتداخلها وتعارضها بل وازدحامها الصخبي في بعض الاحايين . فكما ان العمق السيمفوني يرادف الغموض في بعض اللحظات السيمفونية الحرجة التي تتشابك وتتداخل الاصوات النغمية فيها المعبرة عن الانهزام فالانتصار فالهبوط فالصعود ، عن التعانق بين النقيضين ، فان بعض ادبائنا العراقيين بالذات قد استطاعوا التمرد على موسيقى الرنين الخارجي الناتج عن الترف البياني وغنائيات البحتري وابن زيدون ، فعبروا عن الحركة داخل العمل الفني باستحداث موسيقى « موجية » تذهب في اكثر من اتجاه ثم تلتقي عند نقطة

ارتكاز ، ثم تتنافر فلا تلتقي الا بعد مرحلة زمنية من مراحل نمو التجربة لتمثل وضوح النهاية الهادىء او مقـــدارها الدرامي في الحياة خارج السياق للاثر الفني !! لا بد ان يدرك الناقد ذلك فهو باستمرار عملية عطاء بازاء اعمال فنية معطاءة حتى تلك الاعمال الشحيحة الاعماق فهو مكلف كهؤلاء الحفريين الصبورين الذين كشفوا النقاب عن عصـــور بأكملها ــ ان يعطي تصميم خلقها ، او تعديل خطوطها. لا بد ان يدرك الناقد الابعاد النفسية للكلمة وهو لهذا محتاج الى شفافية توازى شفافية الفنان الناجح ان لم تكن تتفوق عليه . ولسنا نقصد بالكلمة الحدود الوضعية للمفـــردات المتناثرة ، ولكننا نقصد ذلك القطاع الكبير من الوجود الدينامي المنقول لنا او عنا عبر الزمن ، فالكلمة بهذا المعنى ليست الا خزانات استوعبت طوابع بيئات ، ومناخات متباينة. ونحن نتذوق هذه البيئات والمناخات من خلال التلقى والاعاشة !!

وهذه مهمة الناقد ، وبالرغم من ان الناقد اذا القى احكاما جيدة على عمل جيد ــ وهو بذلك ــ يضيف الى ثقافته رصيدا جديدا لانه يحرك هذه الثقافة التي تتجمع وتحتشد في لحظات تذوقه للاثر ــ الا انه مع ذلك يمر بعملية اصطفاء نوعي لعديد من الاراء الطارئة والمستحدثة ، قبل ان يستقر الى رأي نهائي ، لانه يعيش المراحل الزمنية لهذا العمل تماما كما يقف المهندس المعماري ازاء بناية شاهقة . فهو هنا فنان يخلق !! ومن هنا ندرك لماذا لا يعطي بعض النقاد آراءهم بسهولة وفي زمن وجيز، لماذا ؟ لانهم يمرون انفسهم بنفس التجربة النفسية التي عاناها الفنان .. ولكن قد تكـون المسألة عكسية ، فنقف بازاء احكام فجة ..متسرعة، ومثل هذا الناقد يعطي بلا شك كثافة ثقافته الضحلة وابعاد تذوقه القصيرة ، وبالتالي فهو ينحي نفسه بنفسه عن جادة طريق النقد . لماذا ؟ لان هناك باستمرار رقابة من الخارج مـــن الابعاد الثقافية الاخرى التي تجلس في منصة القراءة لتعطي احكامها النسبية ايضا !! فنحن اذن نعطي ثقافاتنا عندما نطلق احكامنا ، ومن ثم ندرك لماذا يفشل بعض النقاد الذيـــن يكررون انفسهم من خلال ما يكتبون او من خلال مقدماتهم لبعض الكتب التي تأخذ سبيلها الى حوائط اسوار الازبكية ليقراها الذباب الفضولي !! لماذا ؟ لانهم لا يخرجون عن حدود كلمتي الشكل والمضمون . فما دام الاديب الطالع يزحـم سطوره بكلمات الجوع والكفاح والعرق والسل .. وعديـد غيرها من الكلمات النثرية حتى ولو كانت مجرد شعـارات زائفة او نداءات لا يرفدها محصول ثقافي واع ، وما دام يصرح بانه انما يدعم جبهة الفنانين المستقبليين .. حتـى ولو ساق لنا بضع كلمات مرصوصة ابعد ما تكون عن مجال الفن ، فاذا كان هو كذلك.. فلا بأس من اعطائه بطاقة مرور! وماذا تكون النتيجة ؟ انطماس المعالم والسمات ــ فانت والحالة هذه لا تستطيع تمييز ملامح هذا عن ذاك !!

ونحن نكرر للمرة الثانية ان النقد عملية خلق وابـداع وتطور مستمر .. فقد نلتقي جميعا نقادا او خالقين عند مشكلة معينة بحكم المعاصرة . ولكن في حـدود الانطبـاع المقابل بمعنى ان الصورة الجدة .. تعطى صورة جديدة اخرى ليست موجودة في السياق الاول .. ولانه لا بـد من عملية خلق باستمرار سواء من جانب الفنان او الناقد او حتى القاريء المثقف .. نوضح ذلك بان كل عمل جيـد فيه نواقص يدركها الفنانون الاخرون .. وقد ينتجـــون اعمالا فيها استدراك لهذه الجوانب الناقصة ثم تصبـــح الاعمال الاخيرة مع مرور الزمن ذات نواقص ايضا ، ولهـذا ندرك لماذا كانت حلقات التاريخ كلها امتدادا متمما بعضها البعض . وذلك يعني ايضا ان الموضوع المعالج من مواضيـع العصر الحساسة التي تعطي اكثر من صورة لجوانب الحياة المختلفة بطريقة التوالد المباشر : فبعض المواضيع يصلح لان يعالجه اكثر من فنان ومن اكثر من بيئة وزمان ومكان ، وعلى عكس ذلك بعض المواضيع فانها تقف في حدود تناول واحـد !!

والنقد مرهون بوجود الاثر الادبي . وهذا الاخير مرتبط اشد الترابط بالنقد . ومع ذلك ، فهو يستطيع ان يطرق باب الزمان والتاريخ دونما ادنى ايماءة الى كلمة قادحة او مادحة ، وليس معنى ذلك اننا نرمي الى القول بـــان النقد عالة على المادة الادبية ، ولكننا نريد تقرير حقيقة ملموسة عند كبار الادباء في العالم . والمسألة تختلف اختلافا جذريا عندما يلتقي الفنان والناقد في نطاق خط كفاحي واحد . فتنمية الجوانب المضيئة في الحياة حينئذ تحتم اللاثنائية، فلن نستطيع اقامة تمثال جميل .. وكلانا يعمل ازميله في جهة متباينة ... لاسيما وان اعباء الانســـان في القرن


صدر حديثا عن دار صادر ودار بيروت

مجموعة تراث العرب

| | غ.ل. |
|---|---|
| * ديوان المتنبي | ١٠٠٠ |
| * ديوان امرىء القيس | ٤٠٠ |
| * ديوان عنتر | ٥٠٠ |
| * شرح المعلقات السبع للزوزني | ٣٠٠ |
| * ديوان عبيد بن الابرص | ٤٠٠ |
| * ديوان ابن الفارض | ٥٠٠ |
| * ديوان سقط الزند لابي العلاء المعري | ٦٠٠ |
| * مجمع البحرين لليازجي | ٦٠٠ |
| * البخلاء للجاحظ | ٦٠٠ |

# ضحكة جميلة

**( عندما تلي حكم الاعدام على المناضلة الجزائرية جميلة بوحيرد اغرقت في الضحك .. فانفجر رئيس المحكمة صارخا : « لا تضحكي ! فالامر خطير ... » )**

أي ضحكه
فجرت في فم جلاد حقير
صرخة
« لا تضحكي الامر خطير ... »
صرخة تنبض بالرعب ،
بأحقاد فرنسا الهمجيه ..
أي ضحكه
هزأت بالموت ،
بالسجن ،
بارهاب عبيد الهتلريه
انها ...
ضحكة « جان دارك » ابيّه
انها ...
ضحكة اخت عربيه
الهبت في قمم « الاوراس » الاف المشاعل
تتحدى
قادة الطغيان ، اعداء الحياة
وتنير الظلمات ...
لرفاق الشمس ،
احرار الجزائر
هي ضحكه
حرة النبرة ،
خضراء ،
نبيله ..
نبعت كالنور من قلب « جميله »
وكأشذاء الخميله
عانقت اطيب الوان المشاعر
في نفوس الشعراء ...
فاذا الكون غناء
واذا باسم جميله
في شفاه البسطاء
غنوة ،
اسطورة ..
تنسج آيات البطوله
واذا رسم جميله
في صدور الشرفاء
رمز عز واباء
وحميه
لبطولات فتاة يعربيه
هزأت بالموت ، بالظلم ،
لطغيان عبيد الهتلريه
اي ضحكه
غصبت من فم جلاد حقير
صرخه تنبض بالحقد ،
بآثام فرنسا الهمجية :
« انما الامر خطير !.. »
اي ضحكه

بغداد **حسن البياتي**

---

العشرين ثقيلة ، هذا الانسان الذي ورث التراث الثقافي كله باعتباره وحدة متكاملة منذ المشاعية الاولى الى يومنا هذا . فقد بدأ هذا الانسان يتسلح بوجهة نظر مجددة ، ازاء النواميس الطبيعية ، وجهة نظر معينة ازاء الحياة والتاريخ والانسان ، بل ازاء المحيط الكوني ، وجهة نظر علمية قد تصل في بعض الاحايين عند البعض الى مستوى النظرية المقعدة عن طريق المقدمات والنتائج المنطقية والمقبولة عقلا. وبدأ شيئا فشيئا ينفض عن ذهنه تركة الخرافات القديمة وقضاياه المثالية التي كانت تسحره بعالم ما وراء الطبيعة . ولكن لا بد من التحفظ من اجل الحقيقة الجمالية، فلا يصح بحال من الاحوال ان نصدر احكاما عشوائية ـ لمجرد اقاماته اهرامات لا تخرج عن حدود القزامة ، لحماية نباتات طفيلية على حساب نباتات اصيلة . نقول ذلك بالرغم من ان العمل الجيد يفرض نفسه .. لدرجة انه يخترق المناطق البعيدة فهو عملية استجابة تقابلها نداءات القراء من شتى بقاع العالم ـ هذه حقيقة يمكن ان تسلك في عداد النقد المرشح بعض الاعمال لان تعيش وان تترسب في الوجدان وان تصبح بعد ذلك سلوكا يباشر في الحياة اليومية !!

واذن فلا مناص من صد الشعارات الزائفة والمخربة في آن معا !! وهنا تبرز مشكلة الخط السياسي ـ فلا يوجد ادب ما ـ في مختلف العصور التاريخية ـ لا يدخل تحت الخط السياسي ، اي خط ، حتى في تلك العصور التي كان يوجد فيها ادبان متعارضان : ادب الطبقات العليا وادب العامة الشعبية .. فكلاهما كان يحمل وجهة نظر ازاء انظمة الحكم . والخط الساسي ينبغي ان يمر بمرحلة اقناع وتبرير وتمثل داخل نفس الفنان حتى يصل الى درجة الاختمار ، فالتقمص ، وعلى الناقد ان يميز بين الاعمال المفروضة فرضا على النفس البشرية من الخارج دون سابق تبرير وبين الاراء المطواعة التي يدافع عنها الفنان بحرارة وصدق . فهو لا بد ان يحمل مقياس الحرارة لو صح هذا التعبير .. فلا يمكن ان تعيش تلك الاعمال التي يحررها بعض النقاد الواقعيين كما يتخيلون لتعيش في واعية الزمن ، وهي ابرد من ثلوج العصور الجليدية !!

**محي الدين فارس**

**عضو رابطة الفنانين السودانيين بالقاهرة**